يـا عَـبْـلَ! لَـوْ أنّ الـمَـنـيّـةَ صُـوّرَتْ
لَـغَـدَا إلـيّ سُـجُـودُهـا وَرُكُـوعُـهـا[١]
وَسَـطَـتْ بـسَـيْـفـي فـي الـنّـفُـوسِ مُـبـيـدَةً
مَـنْ لا يُـجـيـبُ مـقـالَـهـا وَيُـطـيـعُـهـا[٢]

حصاني دلال المنايا

قال في يوم المصانع:

[الوافر]

إذا كَـشَـفَ الـزّمـانُ لَـكَ الـقِـنَـاعَـا
وَمَـدّ إلَـيْـكَ صَـرْفُ الـدّهـرِ بـاعـا[٣]
فَـلا تَـخْـشَ الـمَـنِـيّـةَ وَالـقَـيَـنْـهـا
وَدافِـعْ مـا اسْـتَـطَـعْـتَ لـهـا دِفـاعـا[٤]

(١) يُخاطب الشاعر عبلة أنه لو تمثل الموت بصورة بشرية لكان عليه أن يقوم بعبادته؛ فيُصلي لأجله ويركع له. وفكرة الركوع والسجود فكرة إسلامية، ممّا يوحي بالنحل في هذه القصيدة.

(٢) إنه سيفه وسيلته ليسطو على النفوس المعاندة فينتزع منها حياتها ويحطم كبرياءها ويحملها على الطاعة والاستسلام ويُنطقها بما يحبّ ويرضى.

(٣)، (٤) مناكفات الدهر لا حصر لها، فالمرء دائم الصراع مع الوجود ومع الزمن، وقد يكر الزمن فيزيّن للبشر ما يحبّون وما يكرهون فيخدعهم، وقد يكشف عن حقيقة بشاعة وجه، فيمدّ يده طويلة حتى تصافح من يقع فريسة خداعة، فيبدو باعه عارياً بشعاً، ولذا فإن على المرء ألّا يخاف من المجابهة، فالموت آتٍ على كلّ حال، ولا بدّ من مدافعته بمجابهته بشتّى الوسائل، وبما يستطيعه الإنسان.

وَلا تَـخْـتَـرْ فِـرَاشـاً مِـنْ حَـرِيـرٍ؛
وَلا تَـبْـكِ الـمَـنَـازِلَ وَالـبِـقَـاعـا[١]
وَحَـوْلَـكَ نِـسْـوَةٌ يَـنْـدُبْـنَ حُـزْنـاً،
وَيَـهْـتِـكْـنَ الـبَـرَاقِـعَ وَالـلِّـفَـاعـا[٢]
يَـقُـولُ لـكَ الـطّـبـيـبُ: دَوَاكَ عِـنْـدي
إذا مـا جَـسّ كَـفَّـكَ وَالـذِّرَاعـا[٣]
وَلَـوْ عَـرَفَ الـطّـبـيـبُ دَوَاءَ دَاءٍ
يَـرُدّ الـمَـوْتَ مـا قـاسـى الـنِّـزَاعـا[٤]
وَفـي يَـوْم الـمَـصَـانِـعِ قَـدْ تَـرَكْـنَـا
لَـنَـا بِـفِـعَـالِـنَـا خَـبَـراً مُـشـاعـا[٥]
أقَـمْـنَـا بـالـذّوَابِـلِ سُـوقَ حَـرْبٍ
وَصَـيّـرْنـا الـنّـفُـوسَ لـهـا مَـتـاعـا[٦]

---

(١)، (٢) وحيرة المرء لا حصر لها، ورغم ذلك فعليه أن يختار أهون الشرّين، فالنوم على الحرير يدعو إلى الإهمال والكسل، وعلى الإنسان ألّا يبكي الماضي، فإنه انتهى بما فيه، وحتى ما خسره الإنسان من أملاك ومنازل، فالبكاء لا يعيده، لذا فعلى المرء أن يدع البكاء؛ فهو لغة الضعفاء، وما يزيد المرء ألماً أن هناك نساءً يثرن في النفس اللّوعة ببكائهن وندبهن، وقد يبالغن بذلك فإذا بهن يمزّقن ما يسترهن من براقع وألبسة.

(٣)، (٤) وتلك القضية لبّ الصراع الأزلي في هذا الوجود؛ فالطبيب أحد أركانها، يتمثّل فيه الشفاء، فيلتمس الدواء عنده من هو بحاجة للشفاء، مادّاً إليه يداً ضارعة على الخلاص من الموت المحتم، والحقيقة التي لا مراء فيها أن الطبيب من أسباب الشفاء ولا يتمثّل فيه الشفاء، ولو استطاع أن ينجو بنفسه من الموت لفعل، ولكن للأسف لا يستطيع دفع الموت عن نفسه.

(٥)، (٦) يوم المصانع يوم من أيام العرب في الجاهلية، انتشرت نتائجه بين القبائل، وقد استعملت بنو عبس الرماح المستقيمة اللينة، وكان ذلك اليوم سوقاً تجارية؛ فقد اشترى بنو عبس الربح بما بذلوه في سبيل الربح متاعاً، فبذلوا في سبيله الغالي والنفيس.

حِـصَـانـي كـانَ دَلّالَ الـمَـنـايـا
فَـخـاضَ غُـبَـارَهـا وَشَـرَى وَبـاعـا[١]
وَسَـيْـفـي كـانَ فـي الـهَـيْـجـا طَـبـيـبـاً
يُـداوِي رَأسَ مَـنْ يَـشْـكـو الـصُّـداعـا[٢]
أنـا الـعَـبْـدُ الـذي خُـبّـرْتَ عَـنْـهُ
وَقَـدْ عَـايَـنْـتَـنـي فَـدَعِ الـسّـمَـاعـا[٣]
وَلَـوْ أرْسَـلْـتُ رُمْـحـي مَـعْ جَـبَـانٍ
لَـكَـانَ بَـهْـيـبَـتـي يَـلْـقـى الـسّـبـاعـا[٤]
مَـلأتُ الأرْضَ خَـوْفـاً مِـنْ حُـسـامـي
وَخَـصْـمـي لـم يَـجِـدْ فـيـهـا اتّـسَـاعـا[٥]
إذا الأبْـطـالُ فَـرّتْ خَـوْفَ بَـأسـي
تَـرَى الأقْـطَـارَ بَـاعـاً أوْ ذِرَاعـا[٦]

---

(١)، (٢) جال وصال الشاعر على حصانه يدلّل على الضحايا ويُودي بهم إلى هوّة الموت، فإذا بالغبار تتصاعد في السماء، وهو بين بيع وشراء، يظهر تارة ويختفي تارة أخرى، ووسط الغبار المتصاعد في جوّ المعركة يلمع سيف الشاعر، معلناً أنه طبيب يداوي من يشكو صداعاً وألماً برأسه، بأنه يمكنه أن يخلّصه من آلامه وأوجاعه.

(٣)، (٤) يفخر الشاعر بأنه عبد، ولطالما نفر عنترة من عبودية كرهها فكيف يدّعي بذلك؟! ولقد تناقلت الألسن خبره وأخبار عظيم أعماله، ولا يكفي المرء أن يسمع بها فعليه أن يرى حقيقة الأمر، ومن ذلك أن رمحه سرّ تفوّقه لو أعاره إلى جبان لتحوّل هذا إلى شجاع وبه وبهيبة الشاعر تمكن من مجابهة السباع الضارية وانتصر عليها.

(٥)، (٦) زرع الشاعر الخوف والفوضى الأرض بأسرها مخافة سيفه البتّار، ولعنة الشاعر تلاحق خصومه الأبطال الشجعان، لذا تضيق عليهم الأرض بما رحُبت ممّا يسهّل عليه القضاء عليهم رغم محاولات الفرار من أقدارهم، فهي لا تزيد عن باع أو ذراع.